سلسلة الأوائل

أول من أسلمت من النساء

السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

٥

محمد ثابت توفيق

مكتبة العبيكان

سلسلة الأوائل للفتيان

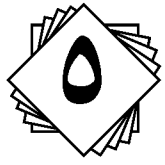

أول من أسلمت من النساء
السَّيدةُ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

بقلم
محمد ثابت توفيق

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أول من أسلمت من النساء السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان ـ الرياض.

٤٠ص، ١٧×٢٢ سم

ردمك: ١-٦٩٧-٢٠-٩٩٦٠

١- خديجة بنت خويلد ٢- زوجات النبي

أ - العنوان ب- السلسلة

ديوي ٢٣٩،٧ ٢١/١٨٥٣

ردمك: ١-٦٩٧-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢١/١٨٥٣

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشـر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

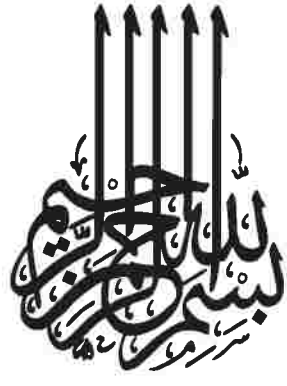
بسم الله الرحمن الرحيم

عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب قال:

قال رسول الله ﷺ:

«**أمرتُ أن أبشرَ خديجةَ ببيتٍ من قصبٍ لا صخبَ فيه ولا نصبَ**».

رواه مسلم

مولدها ونسبها:

ولدت في بيت شرف ومجد قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً تقريباً لخويلد بن أسد بن عبدالعُزَّى بن قُصَيّ، ويعد والدها من أشراف قريش، ومن كبار رجالها، وأصحاب الرأي فيها، وقد زادها شرفاً ومجداً التقاء نسبها بنسب رسول الله ﷺ في الجد الخامس «قُصَيّ بن كلاب».

أما والدتها فهي: فاطمة بنت زائدة بن الأصم يمتد نسبها إلى لؤي وبه تلتقي بنسب النبي ﷺ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن سيرة أمها كما فعلوا مع أبيها.

نشأتها:

نشأت خديجة في بيت من بيوتات قريش الشريفة؛ فغدت امرأة عاقلة جليلة، اشتهرت بالحزم والعقل والأدب الجم؛ لذلك تبوأت مكانة رفيعة في قومها، كما كانت محط أنظار كبار الرجال من قومها، إضافة إلى كل ذلك فقد تمتعت بصباحة وجهها وجمال نفسها(١).

زواجها قبل النبي ﷺ:

شاءت إرادة الله أن تتزوج خديجة مرتين قبل أن تتشرف بزواجها من رسول الله ﷺ.

---

(١) نساء حول الرسول ﷺ ص ٣٧ بتصرف.

تزوجت من عتيق بن عائذ المخزومي وقد ولدت له هنداً بنت عتيق ومات عنها فتزوجها أبو هالة مالك بن النباش بن زرارة التميمي وقد ولدت له هند ابن أبي هالة ربيب النبي ﷺ[1] وبعد وفاة زوجها الثاني رغبت عن الزواج رغم من تقدموا لها من أشراف قريش وكبار رجالها.

اشتغالها بالتجارة:

لقد آثرت السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ الانصراف عن الزواج وفضلت التفرغ لتربية أبنائها ورعاية شؤونها التجارية مستثمرة مالها الوفير في التجارة، وهي مهنة يجيدها قومها من أهل مكة، حيث كانوا يرتحلون من أجلها إلى بلاد الشام واليمن صيفاً وشتاءً، ولكونها أنثى فما كانت لتخرج بمالها مسافرة مثل رجال قومها، بل كانت تدفعه مضاربة للرجال ليتجروا لها فيه، أو تستأجرهم لهذا الغرض[2].

ما اشتهرت به في مكة:

اشتهرت ـ رضي الله عنها ـ بين أهل مكة رجالها ونسائها بأخلاقها الكريمة وسيرتها العفيفة النبيلة. قال السهيلي: خديجة بنت خويلد كانت تسمى الطاهرة في الجاهلية والإسلام وقال غيره: كانت في الجاهلية تدعى الطاهرة وهي سيدة نساء قريش[3].

---

(١) السيدة خديجة أم المؤمنين ـ طهماز ـ ص ١٥ وما بعدها بتصرف.

(٢) السيدة خديجة ـ طهماز ـ ص ١٦، ص١٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٧.

أما شهرتها التجارية فقد فاقت كل تجار مكة وأصبحت في الصدارة منهم.

اللقاء بين الأمين والطاهرة:

مما لا شك فيه أن الأخلاق تجمع وتفرق تجمع المتآلفين، وتفرق بين المتناقضين، وقد جمعت الأخلاق الكريمة بين الأمين محمد ﷺ والطاهرة خديجة ـ رضي الله عنها ـ فكيف كان ذلك؟

كانت السيدة خديجة تتمتع بهمة عالية ونفس لا تحب إلا أن تنتقلَ من نجاحٍ إلى آخر وكانت في دنيا التجارةِ معروفةً مشهورة كما قلنا سابقاً.

يرجعُ ذلك إلى أسباب كثيرة منها: حسنِ انتقائها للرجالِ الذينَ يقومونَ على أمرِ هذه التجارةِ فيذهبونَ إلى الشامِ مرةً وإلى اليمنِ أخرى؛ كانتْ حريصةً على إعطاءِ من يعملُ لحسابهَا من المالِ ما يكفيه حتى يغني نفسَه عن النظرِ أو التلاعبِ في أسعارِ البيعِ أو الشراءِ كانتْ تسندَ إلى كلِ رجلٍ من الأعمالِ ما يناسبهُ؛ فلا تجعل أحدهم في منزلةٍ لا يستطيعُ العملَ فيها؛ أو حسنَ التصرفِ وسرعتَه نظراً لكونهَا أعلى من قدراته، ولا تجعلْ آخرَ في منزلةٍ أقلَّ من استطاعتِه حتى لا يحسُّ بالظلمِ فيهملُ في أمرِ التجارةِ، وهكذا ينبغي دائماً أن يوضعَ الرجلُ المناسبُ في المكانِ المناسبِ إذا أردنَا لأمرٍ ما

النجاحَ وارتفاعَ القدرةِ، أيضاً كانتْ تحرصُ على تجديدِ وجوهِ من يعملونَ معهَا؛ تحرصُ على إلحاقِ شابٍ جديدٍ بالعملِ لديهَا كل حينٍ.

إنها تاجرةٌ بين أهل مكة وفيهمْ من اشتهرَ بالتجارةِ؛ هؤلاءِ كثيرونَ لذا وجبَ عليهَا أن تهتمَّ، كما يجبُ عليهَا أن تحترسَ قبلَ أن يقَع اختيارهَا علَى الذي سيتولَّى بعضَ شؤونهَا، وذلكَ بأن تُحسنَ اختيارهُ؛ تفكر جيداً فيه قبلَ أن تدخلهُ بين رجالِهَا ثم هي بعدَ أن تعينَه ليتولى مهام تجارتها ترسل خلفه غلمانَهَا الصغارَ . يُشاهدونَ أفعالهُ، وليس هذا من قبيلِ التجسسِ وإنما على النقيضِ تماماً، فهذا الفعلُ هو من الأمورِ التي يستحبُّ فيها إخبارُ صاحبِ العملِ بحقيقةِ من يريدُ أن يبقيَه في موضعهِ، أو أن يوليهِ عمَلاً أكبرَ؛ فربما شاهدَ صاحبُ العملِ فيمنْ عينهُ شيئاً أعجبَهُ وغابتْ عنه أشياء أخرى ستؤدِي إلى خسارةٍ عظيمةٍ تصيبهُ في ماله؛ لذا كان غلمانُ السيدةِ خديجةَ حريصينَ على إبلاغها بكلِّ أمرٍ حسنٍ يرونهُ من أحدِ الذينَ استأمنتهمْ علَى مالهَا، أيضاً لا يحرجُونَ من أن يذكروا بدقةٍ وأمانةٍ ما رأوه غيرَ صالحٍ منْ سلوكِ وأفعالِ أولئكَ المستأجرينَ القائمينَ على أمرِ بعضِ مالِهَا.

من بينِ رجالِ مكَة كانتِ السيدةُ خديجةُ تسمعُ عن رجلٍ مالم تسمعهُ عن إنسانٍ من قبلُ، بلغهَا صدقُ حديثهِ معَ الناسِ، في كلِّ الأمورِ كبيرِهَا وصغيرهَا، لقد تحدثتْ مكةُ كلهَا عن صدقهِ رغمَ أنه شابٌّ لم يتعدَّ العشرينَ

بكثيرٍ، ذكروا أنهُ لا يكذبُ أبداً مهمَا كانَ الموضوعُ الذي يتحدثُ فيه أو الفائدةُ التي ستعودُ عليه من مغايرتهِ للحقيقةِ. كذلكَ أخبرتْ أنه لا يخونُ أبداً؛ فأهلُ مكةَ يودعونَ لديهِ متاعهم وأماناتِهمْ، فيجدونَ المالَ كما هو، مهمَا طالَ الزمانُ أيضاً، من جعل لديه شيئاً غير المالِ وجدهُ لم يمس ولو بعدَ فترةٍ من الزمانِ، وأكثرُ من هذينِ الأمرينِ فلقد اشتهرَ أيضاً بحسنِ الخلقِ والأدبِ العظيمِ، لا يتحدثُ كثيراً في الأمورِ التي لا تخصُّهُ، ولا يتدخلُ في شؤونِ غيرهِ، قليلُ الكلامِ، غيرَ أنهُ إذا نطقَ لم يقلْ إلا المفيدَ، لايصدرُ عن فمهِ غيرُ الحقِ في الغضبِ والرضَى، ولا يمنعهُ هذا الأمرُ من أن يذكرَ الحق، لكن في عبارةٍ رقيقةٍ لا تحرجُ ولا تجرحُ أحداً من الناسِ، بخلافِ الشبابِ الجاهليِ الذي يضيعُ مالهَ وعقلَه وقيمَه بالخمورِ والقمارِ والفسادِ.

بلغ السيدةَ خديجةَ عن ذلك الفتَى أنه لا يقربُ الخمرَ قط، لا يتذوقهَا بلْ لا يجالسُ ـ أساساً ـ من يشربونهَا، وهي التاجرةُ التي تعرفُ مقتلَ الرجالِ، الأمرُ الذي يصيبهمْ بأشدِّ الضررِ إنَّها مواضع خسارةِ التجارِ؛ إنه شربُ الخمرِ؛ ثم الكذبُ والتدليسُ، أي بيع السلعةِ على أنها ذات فائدَة عاليةٍ وإذا ما انصرفَ بها المشتري اكتشفَ أنهَا قليلةُ الجودةِ أو رديئةٌ.. هذا المشتري يذهبُ ولا يعودُ ثانيةً، ثم إنه ينصحُ غيرَه بعدمِ الشراءِ من التاجرِ أو صاحبِ هذه البضاعةِ؛ إنها التاجرةُ الذكيةُ السيدةُ خديجةُ، تعرفُ أنه ليسَ إلا صدقُ

الحديث، وعظم الأمانة، وكرمُ الأخلاق، وطهارةُ اليد، مقومات التاجرِ الناجح.. لا شيءَ غير ذلك.

أيضاً وُهبَ هذا الفتى العظيمُ جمالَ الطلعةِ وإشراقةَ الوجهِ؛ خاصةً وأنَّ نور الابتسامةِ لا يفارقُ شفتيهِ قط.

لكن السيدةَ خديجة تعلمُ أن في تجارةِ بني هاشم ـ قبيلةِ محمد ﷺ ـ من التجارةِ ما يكفِي كي يستنفذَ قدراتِ هذا الفتَى، لم تكن السيدةُ خديجةُ تعلمُ أن كثرةَ العيالِ قد ذهبتْ بتجارةِ أبي طالبٍ، وأن أبا لهبٍ ـ عم الرسولِ أيضاً ـ قد أعرضَ.. أهمل أمرَ التجارةِ وشغلَ نفسهُ باللهوِ، كان أبو لهبٍ قد انشغلَ عن التجارة بشربِ الخمر واللهوِ والمتعِ.. أما العباسُ فكانَ يفضِّل أن يخرج في تجارتِهِ بنفسِهِ على أن يبعثَ برجالٍ يتاجرونَ له.

فكيف يمكنُ للسيدةِ خديجةَ أن ترسلَ في طلبِ الرسولُ الكريمِ إذن؟

ذهبَ ﷺ إلى دارِ عمهِ أبي طالبٍ مرَّة؛ فوجدَ عمَّه وعمتَه عاتكةَ بنت عبدالمطلبِ يتحدثانِ؛ ألقى عليهما السلامَ وجلس بجوار عمِّه فقال له أبوطالب:

– «أنا رجلٌ لا مالَ لي، وقد اشتدَّ الزمانُ، وألحتْ علينَا سنونَ منكرة، وليسَ لنا مادةٌ ولا تجارةٌ؛ وهذه عيرُ[1] قومكَ قد حضرَ خروجهَا إلى الشامِ،

(١) عير: قافلة من الجمال والنوق مخصصة للتجارة.

وخديجةُ بنت خويلدٍ تبعثُ رجالاً من قومكَ في أموالهَا وتجارتهَا فيتجرونَ لها في مالهَا يصيبونُ منافعَ؛ فلو جئتهَا فعرضتَ نفسَك عليهَا لأسرعتْ إليكَ وفضلتكَ على غيرِكَ لما بلغَها عنكَ من طهارتِكَ».

أجابَ الرسولُ الكريمُ في كلماتٍ معدودةٍ:

– فلعلهَا أن ترسلَ إليَّ في ذلكَ.

– إنه يجيبُ على قولِ عمهِ بأنه يفضلُ أن ترسلَ إليه السيدةُ خديجةُ على أن يذهبَ هو بنفسِه إليها.

ومع أن ذهابَه لا يعيبهُ إلا أن الرسولَ الكريمَ وهو الذي فتحَ عينيهِ على الحياةِ فوجدَ نفسهُ قد فقدَ الأبَ إذْ إنَّ عبدالله أباه قد توفي وهو مازال بعد جنيناً في بطنِ السيدةِ آمنةَ أمه، وهو أيضاً ﷺ لم يتم ست سنواتٍ إلا وفقدَ الحضنَ الدافِىء والحنانَ الكبير، فلم يكمل الست سنواتٍ حتى توفيتْ أمه فصارَ يتيمَ الأبوينِ يحيَا بينَ كنفِ عمهِ أبي طالبٍ إلى أن كبرَ، وقد صار يتيمَ الأبوينِ؛ لأن اللهَ قدرَ ألا يربطَه في نشأتِه بأحدٍ من البشرِ، بل يربطه به وحده؛ حتى أبويهِ أراد اللهُ للرسولِ العظيمِ ألا يستشعرَ فضلَ أحدٍ من البشر عليه إلا فضلَ ربه ـ عز وجلَّ ـ عليه.

ذلك أمرٌ اختصَّ اللهُ به رسولَه العظيمَ وقالَ عنه ﷺ بعد بعثتهِ ـ إن صحَّ الحديث ـ:

« أدَّبني ربي فأحسنَ تأديبي » .

هذا الرسولُ العظيمُ قد أدركَ ـ حتى قبلَ أن يبعثَ ـ هذا الدرسَ وعلم فضل ربه عليه . . لذلك تأبى نفسُه أن يذهبَ إلى أحد من البشرِ عارضاً نفسه عليه .

كانت السيدة عاتكةُ عمةُ الرسولِ ﷺ حاضرةً تستمعُ إلى كلماتِ أخيها أبي طالب، ووعتْ إجابة ابن أخيها محمدٍ، فعلمتْ أن محمداً تأبى نفسُه أن يذهبَ إلى أحد حتى لو كانت السيدةُ خديجةُ بنت خويلدٍ التي يُهرَعُ إليها الرجالُ ليكونَ لهم شرفُ التجارة في مالهَا، كانت تعلمُ عزة نفسِ ابنِ أخيها وإباءه وعفتهُ، فالتفتت إلى أخيها أبي طالب تنتظرُ ردهُ :

– إني أخافُ أن تُولي غيركَ فتطلب أمراً مدبراً » .

يقولُ له عمهُ : إن الموضعَ الشاغرَ الذي لا يشغله أحدٌ حتى الآن قد تختارُ له السيدةُ خديجةُ أحداً غيرَ محمد ﷺ إذن فسيذهبُ طالباً لموضعٍ قد شغلَ بعد ذلك، وكان أبو طالب يذكرُ الرسولَ الكريمَ من طرفٍ خفيٍّ بما فيه أهلهُ وأن الأمرَ قد يزدادُ، فيضطر إلى الذهابِ بعد فواتِ الأوانِ، فما كانَ من الرسولِ العظيمِ بعد أن استمعَ إلى هذه الكلماتِ إلا أن استدارَ على عقبيه مستأذناً في الانصراف .

هكذا تأبى نفسُ الرسولِ العظيمِ الذهابَ إلى دارِ السيدةِ خديجةَ فكيف

يمكن لها أن تكلفهُ بالعملِ في تجارتهَا، لعلهَا تعلمُ أنه مشغولٌ بأمرِ تجارةِ بني هاشمٍ غير داريةٍ بما وصلَ إليه حالهمْ؛ من قلة المالِ بين أيديهم، فهي تظنُّ أن محمداً مشغولٌ بأمرِ تجارة بني هاشمٍ، وهنا درسٌ ينبغِي علينَا أن ننتبه إليه؛ إذ إننا لا ينبغِي أن نعلمَ الآخرينَ من حولنا بجميعِ شؤوننا، وخاصة تلك التي تسوؤُنا، فقد يظنُّ الناسُ الذينَ يحيطونَ بنا أننا في أهنأ حالٍ وأيسره، ونحن نمرُّ بضائقةٍ ماليةٍ مثلاً؛ في هذه الأمورِ يستحب الكتمانُ حتى تمرَّ مثلُ هذه الأمورِ على خيرٍ، ولعلنا ننالُ شرفَ وصفِ الله وثنائه على المتعففين بقوله : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا . . .** ﴾ [**البقرة**: ٢٧٣]. لعل الحيرة أخذتْ بنفسِ أبي طالبٍ.. كيف يمكنُ التصرفُ في مثل هذا الأمرِ؟ كيف يمكنُ أن تعلم السيدةُ خديجةُ برغبةِ الرسولِ العظيمِ في العملِ لديها وهو الذي يرفضُ أن يخبرها بنفسه؟ بل كيفَ لها أن تعرض عليه الأمر بنفسهَا؟

كانت السيدة عاتكةُ. عمةُ الرسولِ ﷺ قد تزوجتِ العوامَ بن خويلدٍ أخا السيدةِ خديجة؛ ومن هنا فالصلة بينهما قوية، والود موصول، ولها منزلة في نفس خديجة؛ ولذا أخذت على عاتقها إخبار خديجة برغبة ابن أخيها فقامت منصرفة من دارِ أخيها إلى دار السيدةِ خديجة وذكرتْ لها الحديثَ وأجابتها السيدةُ خديجة بما يعنِي أنها ما علمتْ أنه يريدُ هذا الأمرَ.

الرؤيا السارة:

قاربت السيدةُ خديجةُ الأربعينَ، فازدادت رزانةَ خلقٍ وسلوكٍ، ورجاحة عقلٍ، مع ما عهدَ عنها قبلاً من حرصٍ على الهدوءِ، مع ما ذاعَ عنها من دقةٍ متناهيةٍ في التجارةِ؛ فلم يكنْ ليبدر أو يصدرَ عنها ما يصدرُ عن بعضِ تجارِ مكةَ من استغلالِ نفوذٍ وظلمٍ للضعفاءِ.

وكيف لا تلتزمُ السيدةُ خديجةُ بمثلِ هذهِ الأمورِ وهي التي أعدت نفسها لعظائم الأمور.

قيل: إن السيدةَ العظيمةَ نامت ذات ليلةٍ فرأتْ في المنامِ أن الشمسَ الكبيرةَ العظيمةَ قد هبطتْ من سماءِ مكةَ لتستقرَّ في دارهَا؛ كيْ تملأ جوانبَ هذه الدار نوراً، ثم يفيضُ النور من دارها حتى يغمر ما حولها، ينير النفوسَ قبل أن ينيرَ الطريقَ.

هبت السيدةُ خديجةُ من نومها مستعيدةً في ذهنها ما رأته في نومِهَا وكلما استرجعتهُ هالَها أن الشمسَ التي رأتْها تهبطُ في دارهَا تكادُ تضيءُ الدنيا كلَّها، هالها أن هذه الشمسَ لو ظهرت ليلاً لحولتْ ذلك الليلَ إلى نهار، نظرت السيدةُ خديجةُ فلعلهَا اكتشفتْ أن المساءَ ما يزالَ يلفُّ الكونَ، راحتْ تدورُ في أرجاءِ دارها، رأت السلعَ النفيسةَ التي تتجرُ فيها فمَا رأت نفسَها تميلُ إليهَا، أو تنشغلُ بهَا عن الأمرِ الذي تفكِّرُ فيه، لعلهَا تؤمنُ

بالرؤَى والأحلامِ، إن نفسَها لن تهدأَ حتى تجدَ من يفسرُ لها منامهَا هذا. على أن رؤيا الصالحين من الرجال والنساء كثيراً ما تصدق، وتدل على فضائل متوقعة.

وما أن ظهرتْ شمسُ الصباحِ وغمرتِ الكوَن كلَّه حتى كانت السيدةُ خديجةُ في طريقها إلى دارِ ابن عمها الشيخِ الكبيرِ السنِّ ورقةَ بنِ نوفلٍ فلما دخلتْ عليهِ وجدته مشغُولاً بكتابٍ من الكتبِ القديمةِ؛ علهُ أحدُ الكتبِ السماويةِ أو ما تبقَّى من أحدِ الكتبِ السماويةِ، ألقت عليه تحيةَ الصباحِ، فما أن استمعَ إلى صوتها حتى هبَّ متعجباً متسائلاً عن الذي جاءَ بالطاهرة تعجبَ من السببِ الذي جعلها تأتي في مثلِ هذه الساعةِ المبكرةِ، تعجبَ لخوفه من أن يكون قد أصابها مكروه أو أصاب تجارتها، تعجبَ ولم يعلمْ أنها قد انتظرت كثيراً حتى جاء الصباحُ واستطاعت أن تأتيِ إليهِ.

وراحت السيدةُ خديجة تقصُّ عليه؛ ما رأتْه في منامِها وهو يستمعُ إليها في انتباهٍ واضحٍ، يعتصرُ عقله، يستحضرُ معانٍ متفرقةً حتى إذا ما انتهت السيدةُ خديجةُ من حديثهَا تهللَّ وجهُهُ وانتشرَ البشرُ على ملامحهِ وهو يقولُ لها:

– «أبشري يا ابنة العمِّ، لو صدق الله رؤياك ليدخلن نورُ النبوةِ داركِ وليفيضنَّ منها نورُ خاتم النبيينَ».

وراحتِ السيدةُ خديجةُ تسألُ عن صفاتهِ وورقةُ يجيبُ وراحت السيدة خديجةُ تنتظرُ ما يقدرهُ الله لها حاضراً ومستقبلاً.

انشغال الرسول ﷺ عن الزواج:

وكان سيدنا محمدٌ ﷺ لم يتزوج بعد وقد تخطَّى العشرينَ من عمره بسنواتٍ، وما كانت عادةُ شبابِ مكَة التأخرَ في الزواجِ حتى هذه السنِّ؛ نعم فالذينَ هم في عمرِ محمدٍ قد تزوجُوا سواء أكانُوا من أقرانه أم من أقاربه. أما هو فقد شُغلَ عن الزواجِ بأمرٍ آخر حيث كان يتطلع دائماً إلى السماء. كأنَّهُ يبحثُ عن شيءٍ عظيم، ثم إنه يتدبرُ في الأرضِ وما عليهَا، ثم يعودُ فيمدُّ الطرفَ في صمتٍ لا يتكلمُ في الحالينِ وإنما لسانُ حالهِ ينبئُ أنه غيرُ مقتنعٍ بأن هذه الأصنامَ التي لا ترى، لا تتكلمُ، لا تسمعُ، لا تتحركُ، لا تعقلُ، تستحقُّ شيئاً من العبادةِ، لا يتكلمُ وإنما لسانُ حالهِ يقولُ: إن شربَ الخمرِ والإفراطَ فيه ولعبَ الميسرِ وإنفاقَ المالِ عليه دونما تعقل مَضرَّةٌ وأيُّ مضرة. لسانُ حالهِ يقولُ: إن الجرائمَ التي يرتكبهَا قُومه في حق أنفسهم والناس من حولهم لا تساعدُ على انتشارِ العدلِ والخيرِ في الأرضِ، كان لسانُ حالهِ يقولُ: لا بدَّ من نظامٍ يسودُ هذا الكونَ، فكمَا أن شمسهُ تشرقُ بانتظام في موعدٍ معينٍ، وكما أنَّ القمرَ لا يتأخرُ عن المجيء في مواعيده، فلا بد من نظامٍ يسودُ حياةَ الأحياء من البشرِ كما سادَ حياة الجماداتِ... كان يرسلُ الطرفَ

في صمتٍ، حتى بدأَ يتغيبُ الليالي ذواتِ العددِ عن قومهِ، ينقطعُ للعبادةِ في غارٍ يدعى غار حراءٍ، وكانت عبادتُه في تلك الفترةِ تأملاً في الكونِ وتفكُّراً وتسبيحاً.

خديجة تطلب محمداً عليه السلام:

أرسلتِ السيدةُ خديجةُ في طلبِ محمدٍ ﷺ بعدما كانتِ السيدةُ عاتكةُ بنت عبدالمطلب أداةَ الوصلِ التي أخبرتها بحديثِ أبيِ طالب معَه.

ودخل محمدٌ ﷺ مكانَ الضيافةَ، دخلَ الرجلُ الذي اعتذرَ عن عرضه عليها أمرَ عملهِ أو رغبتهِ في العملِ لديها حتى أرسلت إليهِ، وأقبلتِ السيدةُ خديجةُ للقائه، كان أول ما لحظته عليه أنه غضَّ بصره عندمَا لاقَاها، طال الحديثُ بينهما، إنه يعرفُ كيفَ ينتقِي أحسن الكلامِ، ومع حسنِ حديثهِ فإنه ليسَ صخاباً، وعندمَا يضحكُ فإنهُ يبتسمُ فقط، رأته عندمَا يتحدثُ إذا أشارَ، أشار بكفِّه كلها، وإذا تعجبَ من أمر ما قلبهَا، إذا ما تحدثَ صحبَ كلماتِه بما يناسبهَا من حركة، إذا فرحَ غضَّ طرفهُ، وكانَ مما قالته السيدةُ خديجة لهُ:

– «لقدْ دعاني إلى البعثةِ إليكَ ما بلغني من صدقِ حديثكَ وعظمِ أمانتكَ وكرمِ أخلاقكَ، وأنا أعطيكَ ضعفَ ما أعطي رجلاً من قومكَ»[1].

---

(١) خديجة بنت خويلد ـ عبد الحميد جودة السحار ـ مكتبة مصر ـ ص ٣٨، ٣٩.

ومعنى كلماتهَا الموجزة البليغة التي حوتْ كثيراً من معانٍ أرادت السيدةُ خديجةُ أن تخبرَ بها الرسولَ العظيمَ، إن الذي دَعاها لأنْ ترسلَ إليهِ طالبةً منهُ أن يعملَ في تجارتِهَا أمورٌ هي:

ما بلغهَا عنه من صدقِ حديثهِ وعظمِ أمانتهِ وكرمِ أخلاقهِ، وهي تعرضُ عليه أن يعملَ لديها على أن تعطيَه أكثرَ مما تعطي واحداً من قومِه، بل إنها تعطيه الضعفَ، أي مثلَ ما يأخذ شابٌّ من قومِ الرسولِ العظيمِ مرتينِ».

خروج القافلة إلى الشام:

وبالفعلِ خرجَ الرسولُ العظيمُ في أولِ رحلةٍ تجاريةٍ في مالِ السيدةِ خديجةَ وكلَّفتْ ميسرةَ أن يخرجَ معهُ إلى الشامِ، وبعد فترة من المسير أراد الرسول العظيم أن يستريحَ من عناءِ الرحلةِ وطولِ الطريقِ فنزلَ في ظلِّ شجرةٍ يستظلُّ بهَا، يبتعدُ عن حرارةِ الشمسِ ساعةَ الظهيرةِ، حين تلهبُ الرؤوسَ ولا يجدُ الإنسانُ إلا مكاناً ظليلاً يهربُ إليهِ..

كانتِ الشجرةُ قريبة من صومعةِ راهبٍ؛ فلمَّا جلسَ الرسولُ الكريمُ في ظلِّ هذهِ الشجرةِ خرجَ الراهبُ من الصومعةِ متسائلاً:

– منْ هذا الرجلُ الذي نزلَ تحتَ هذهِ الشجرةِ؟

فقالَ له ميسرةُ مجيباً:

– هذا رجلٌ من قريشٍ من أهلِ الحرمِ.

فقال له الراهبُ:

– ما نزلَ تحتَ هذه الشجرة قطُّ إلا نبيٌّ.

ومضىَ الرسولُ العظيمُ وميسرةُ مبتعدينَ عن الراهبِ، وقبلَ أن نمضِي نحنُ أيضاً بعيداً عنه نذكرُ أن الإسلامَ العظيمَ قد حرَّمَ أمرَ الرهبانيةِ هذه أي الانقطاعُ لعبادةِ اللهِ بعيداً عن البشرِ؛ ذلكَ لحرصِ الإسلامِ على الجانبِ الإيجابي من الدعوة؛ حرصُ الإسلامِ على أن يكونَ المسلمُ الحقيقيُّ بين الناسِ؛ يؤثرُ فيهم بالخيرِ ويتأثرُ بما لديهم من صفاتِ حسنةٍ.

ثم عادَ النبيُّ ضمنَ من عادوا.. وعادتِ الإبلُ بما حملتهُ من بضائعَ فرأتِ السيدةُ خديجةُ البركةَ قد حلتْ ببضاعتها، ولاحظت مقدارَ الخيرِ الذيِ حل لديهَا.

وحرصتِ السيدةُ خديجةُ على الاستماعِ لميسرةَ الغلامِ الصغيرِ الذي لا تشكُّ في ذكائِه؛ استمعت وصفَه للرسولِ العظيمِ أثناءَ الرحلةِ، وحكى لها حرص الرسول على الصدقِ في كل لفظٍ يقولُه؛ لا يحلفُ مثلمَا يفعلُ بعضُ التجارِ، ولا يحاولُ خداعَ مَنْ أمامهُ.. لا ينطقُ إلا بالحقِّ، أمينٌ في تعاملهِ، يحافظُ على كلِّ درهمٍ، ثم هو من قبلُ ومن بعدُ شديدُ التواضُعِ.

ذكرَ لهَا أيضاً ميسرةُ أن حرارةَ الشمسِ كانت إذا اشتدت عليه هو

والنبيُّ العظيمُ وهما في طريقهما إلى السوق، أو وهما في السوق أنه كانَ يرىَ غمامةً تجيءُ فوقَ الدابةِ التي يركبها مع النبي الكريمِ، تظللهمَا دونَ الناسِ كلهم؛ إذ إن ميسرةَ الغلامَ الصغيرَ الذكيَّ كان يتلفتُ؛ مقارناً حالهُمَا بحالِ البشرِ من حولهما فلا يجد مثل هذه الغمامةِ تظلُّ أحداً غيرهمَا.

ولم ينسَ ميسرةُ أن يخبرهَا عن حديثِ الراهبِ.

زواجٌ مباركٌ

بعد أن عادَ الرسولُ الكريمُ من رحلتهِ إلى الشامِ بعثت إليه ثم قالت له:

« يا بن عم إنِّي قد رغبتُ فيك لحسن خلقك، وصدق حديثك، ومكانتك العالية في قومك وأمانتك ».

أي أنَّ السيدةَ خديجةَ قالت له: إنها قد رغبت في الزواجِ به لمنزلتهِ العاليةِ الرفيعةِ، ولمكانتهِ الساميةِ بين قومِه، وأيضاً لما عرفته من أمانتهِ العظيمة؛ فإن التجارة التي خرج فيها إلى الشام حينما عادَ بها، آتت أرباحاً تمثلُ الضعفَ أو ما يقاربُ ذلكَ، بعدَهَا عرضتِ السيدةُ خديجةُ نفسَها على الرسولِ وهو أمرٌ عاديٌّ، بل ومستحبٌّ حينما تتيقنُ المرأةُ من أخلاقِ من أمامَهَا.

بعدَ أنِ استمعَ الرسولُ الكريمُ إلى كلماتِ السيدةِ خديجةَ، خرجَ من عندهَا إلى أعمامِه؛ ذكر ذلكَ الحديثَ لهم؛ فخرجَ معهُ حمزةُ بن عبدالمطلب ـ رضيَ الله عنه ـ حتى دخلَ على خويلدٍ بنِ أسد وخطبهَا له فتزوجهَا، ويقالُ: إن الذي خُطبَت منه السيدةُ خديجةُ ليسَ أباها، وإنما هو عمها عمرو ا بنُ أسد وهو الذي زوجَها له أيضاً(١).

---

(١) المصدر: تاريخ الطبري، طبعة دار المعارف، مصر ١٩٦٠م ـ الجزء الثاني ص ٢٨.

أغلبُ الرواياتِ تجمعُ أن السيدةَ خديجةَ قد تزوجتْ بالرسولِ العظيمِ وعندها من العمرِ أربعونَ سنةً؛ فكانت له نعمَ الزوج، والقرينةُ الرؤوم التي عوضتَه عن فقدِه المبكر لوالدتهِ السيدةِ آمنةَ بنتِ وهبٍ؛ وقد أنجبتْ السيدة خديجة من الرسول العظيم السيدةَ فاطمةَ، والسيدةَ زينب، والسيدةَ أم كلثومٍ، والسيدةَ رقيةَ، وأيضاً أنجبت القاسَم، وبه يكنى رسولُ الله أي كان ينادَى بـ (أبي القاسِم) والطيبَ والطاهرَ وقد توفُوا وهم صغارٌ.

مرتْ بعضُ سنين على هذا الزواجِ المباركِ، فبدأتِ السيدةُ خديجةُ تلحظُ أن الرسولَ العظيمَ يحكِي لها عن بعضِ الرؤىَ، إذا أشرقَ النهار جاءت رؤياه حقاً واضحاً.

ثم إنه عقب انتهائهِ من أعمالِ التجارةِ وما وكِّلَ به كانَ يتزودُ بالطعامِ والشرابِ ويخرجُ إلى غارِ حراءٍ، حتى جاءه الوحي.

الرسالة

تأخرَ الليلةَ زوجُها محمدٌ ﷺ فجلست السيدةُ خديجةُ تنتظرهُ؛ ربما كانتْ تستعيدُ تاريخَ معرفتهَا به؛ عرفَته وقد تعدتِ الأربعينَ وهو العمرُ الذي يكون الإنسانُ فيه قد خبرَ الحياةَ بحلوهَا ومرهَا؛ عرفَته وقد تُوفي عنها زوجٌ وطلقت من الآخرِ، عرفَته ولكنهَا ما عرفَت ولم ترَ منَ الرجالِ أحداً مثلهُ؛ لذلكَ كانت حريصةً على أن لا يضيع منها محمدٌ ﷺ أو يغيبَ عنهَا.

أوغلَ الليلُ في احتضانِ الكونِ وهو بعدُ لم يعدْ؛ تأخرَ كثيراً الليلةَ عن موعدِ عودته. تُرى هل حدَثَ شيءٌ؟

الأمرُ الذي تدريه جيداً أنه .. هُوَ .. هُوَ كما خبرته وتلقته أولَ مرةٍ؟

لقد كان محمد فريداً في سلوكِه وثباتِه على أخلاقه، لا يتغيَّر ولا يتلوَّن، لأن سلوكَه طبعٌ فيه وفطرةٌ، وليسَ ادعاءً ظاهراً يستخدمُه وسيلةً لنيلِ المكاسبِ والمطالبِ.

كم من رجالٍ تقربوا إلى السيدةِ خديجةَ عارضينَ عليها خدماتِهم؟ لكنهُ الوحيدُ الذي لم يسعَ إلى مثلِ هذا الأمرِ، بل هي التي طلبتهُ وقرَّبتْهُ، ما بالُ الرسلِ يتأخَّرون! لقد أوصتهم أن يحملُوا إليها الأخبارَ ثم يعودوا مسرعينَ.

عاد أسرعُ الرسلِ فأخبَرها أنهم قد بحثُوا عنهُ فلم يجدُوه؛ تأكدت من أنهم قد بحثوا في كلِّ موضعٍ من مكةَ؛ إنهم لم يغفلوا شعباً أو ناحيةً من

جبلٍ؛ أخذت تتمشّى في بيتِها والطرفُ منها لا يفتُر يراجعُ البابَ، لعلهُ يطرقُ. وفجأةً سمعت صوتهُ المضطربَ بأنفاسِه المتلاحِقَة فلقيته مسرِعاً على غير عادتهِ ـ صائحاً:

– زَمِّلوُني .. زَمِّلوُني!

أي غطُّوني.. غطُّوني.. فكأنَّه قد شعَر ببردٍ شديدٍ لا يستطيعُ معه احتمَالاً.

أدركت السيدةُ خديجةُ بفطرتهَا أن شيئاً ما قد ألمَّ به؛ في هدوءٍ راحت تطمئنه؛ أجلسته ... أتَت له بالدثَارَات وقالت:

– يا أبَا القاسِم أينَ كنتَ؟ فواللهِ لقد بعثتُ رسلي في طلبكَ؛ حتى بلغُوا مكةَ ورجعُوا إليَّ.

أجابَها الرسُول الكريمُ قائلاً:

إنَّ الأبعدَ ـ يريدُ نفسَه الزكيَّة الطاهرَة ـ لشاعر أو مجنون.

لم يكن الشعرُ حتى ذلك العصرِ قد ذهبَ؛ كان الشعراءُ في كلِّ وادٍ وموضعٍ ومكانٍ يهيمونَ أي يدورون؛ يتخبطونَ دونما هُدى؛ يقرضونَ أي يقولونَ الشعرَ المليء بالقيَم والفضائلِ والأخلاقِ الكريمةِ، وهمْ في الحقيقةِ أبعدُ الناسِ عنها في حياتهم العمليةِ، أي أنهم يقولونَ ما لا يفعلونَ، وبالرغمِ

من أن الشِّعرَ كان حتَّى ذلك الوقت قوياً؛ يحفظُ للعربِ تواريخهُم؛ يعرفونَ عن طريقِه أيامهُم؛ إذ إن العربَ كانت أمةً أميةً، لا يجيدونَ القراءةَ ولا الكتابَة، ومن هنا أقبلوا على الشعْر، فكانَ «الديوان» الذي يحفظ لهم أخبَارَهم؛ ومعاركَهُم؛ وانتصاراَتهم في حروبهم التي كانت كثيراً ما تثورُ بين بعضهم؛ كذلك كان الشعرُ هو الذي يحفظُ عليهم أسماءَ البلادِ التي يسكنونَ فيهَا والبلادَ الأخرى التي يسافُرون أو يرتحلونَ بعيداً عنها. على الرغم من كلِّ هذا إلا أنهُم كانوا يقولون الشعرَ على الفطرةِ؛ أي أنهُم لم يكونوا في حاجةٍ إلى كثيرِ تعلم.. بل كانَ الواحدُ منهم يحيا بينَ صفْرَة الهلالِ وزرقَة السماءِ، ويسمعُ آباءَه وأجدادَه يقولونَ الشعرَ فتنفجرُ نفسُه به، الأهمُّ من كلِّ ذلكَ أنهم كانُوا يعتقدونَ فيمن ينطقُ بالشعرِ أن «شيطان» الشعر قد حلَّ لديه؛ ذلك لأنهم توهمُوا أن للشعرِ شيطاناً هو الذي يخبرُ الشاعرَ بالأبياتِ التي يستمعُون إليها منه؛ ولأفعالِ الشعراءِ تلك التي لم تكُن ـ حتى ذلك الوقت ـ تناسبُ أقوالهم كره النبيُّ أن يكونَ شاعراً.

ردت السيدةُ خديجةُ على الفورِ:

«أُعيذكَ بالله من ذلك يا أبا القاسِم، ما كان الله ليصنَع بك ذلك مع ما أَعَلَمُه منك..»

وهنا نتوقفُ بعضَ الشيء إنها الزوجَة الصالحةُ الوفيةُ التي تعرفُ مقدارَ

زوجها جيداً، وهي خيرُ متاع الدنيَا، أي خيرُ ما يمكنُ للإنسانِ أن يحصلَ عليه خلالَ رحلته في الحياة، إنها الصورةُ المثاليةُ للزوجةِ الصالحة، إن زوجَها يجيءُ إلى دارِها خائفاً يدَّعِي ما ليسَ فيه، فقبلَ أن يكملَ كلماته؛ قبلَ أن تعرفَ ما دعاه لأن يقولَ ذلكَ عن نفسه تطمئنهُ، تذكِّرُه بصفاته الحسَنَة تلكَ التي تتناقضُ مع ما جاء اليومَ ليقولَه عنْها، ثم هي تكمل كلماتِها:

«مع ما أعلمُه منك من صدقِ حديثكَ وعظمِ أمانتكَ، وحسنِ خلقك وصلَةِ رحمكَ»!

إنها لتؤكدُ له أن الشاعرَ أو المجنونَ لا يتصفَان بهذه الصفات الحميدة التي اختص اللهُ تعالى بها الرسولَ العظيمَ، ثم هي بعدَ أن تطمْئِنَه تَنْفِي عنْه ما يصفُ به نفسَه، ثم هي بعَدما امتصَّت كلماته الأولى تعودُ متسائِلة:

«وما ذاكَ يا بنَ العمِّ»؟

أيُّ أمرٍ خطيرٍ ذلكَ الذي جعلكَ تصفُ نفسكَ بما ليسَ فيهَا، وأنت الذي اعتدتَ ألاَّ تقولَ إلا الحقَّ الواقعَ؟!

أكملتِ السيدةُ خديجةُ:

«لعلكَ رأيتَ شيئاً».

تقصد أن تقولَ: لعلَّك شاهدتَ ما لم تعرفْه أو تتعودْ عليهِ من قبلُ فخيِّل إليكَ أنك تَرى ما ليس حقيقياً.

هكذا هيَ الزوجُة الحكيمَة، تريدُ التأكدَ مما يحدثُ لزوجِها، لذا فهِي قد قدمَت إِليه ما يطمئنُ نفسَه ويهدئُ من روعِه؛ لم تكتفِ بذلِك، إِذ إِنَّها دلفتْ بالفِعل؛ دخلت بالقولِ إِلى السؤالِ المهمِّ عن الذي رآه ودفَعه لأن يقولُ ذلك.

بدأ الرسولُ يروي لهَا ما حدثَ؛ وهو يروِي أيضاً لنا بعد فترةٍ زمنيَّة عرف خلالها وأيقنَ من أمرِ الرسَالةِ قال ﷺ.

« فجاءني جبريلُ وأنا نائم بنمَطٍ من ديباجٍ فيه كتابٌ، فقال: اقرأ..

قلتُ: ما أنا بقَارِئ.

قال: فغطَّنِي به حتى ظنَنتُ أنه الموتُ؛ ثم أرسلَنِي ـ يعني جبريل عليه السلام ـ فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقَارِئ.

– ثم أضاف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً:

– فغطَّنِي به؛ حتى ظننتُ أنه الموتُ؛ ثم أرسلنِي، فقالَ ـ يعني جبريل عليه السلام: اقرأ.

فقلت: ماذا أقرأُ؟ ما أقولُ ذلك إِلا افتداءً منه أن يعودَ لي بمثلِ ما صنع بي، فقالَ ـ يعني جبريل عليه السلام ـ:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قال ﷺ: فقرأتُها، ثم انتَهى ـ يقصدُ جبريل ـ فانصرفَ عنيِّ»(١).

كانت تستمِع إليه في إنصاتٍ شديدٍ؛ تستعيدُ كلَّ كلمةٍ يقولُها؛ تسترجعُها في ذهنِها تتدبرُها جيداً قال: إنه كان كعادته في غارِ حراءٍ يتعبدُ فأخذَه النوم فأفاقَ على جبريلَ عليه السلام، وهو الملكُ الموكلُ بالوحي إلى الأنبياءِ والرسلِ؛ كانت هذه هي المرةُ الأولى ـ بالطبعِ ـ التي يَرى فيهَا الرسولُ حقيقةَ جبريلَ عليه السلامُ، وقد جاءَ جبريلُ إلى الرسولِ بكتابٍ وكانت هذه الكلمةُ حتى ذلكَ الوقتِ تطلَق على الورقةِ.

راحتِ السيدةُ خديجةُ ـ رضيَ اللهُ عنها ـ بعد أن فرغَ الرسولُ الكريمُ من روايةِ ما جرَى تسترجعُ معايشَتَها له مدة خمس عشرة سنة؛ أي راحت تتذكرُ بقاءَها معه طِيلَة هذه المدة، وكانت تراه في جميعِ أحوالِ نفْسِه؛ حال صفائِه وفرحِه وانشراحِ صدرِه؛ أيضاً حال حزنِه وغمّهِ حال حنانِه حينما يداعبُ صغارَهُ؟ وهو حازم عندما يتعاملُ مع التجارِ في السوق، حزمٌ لا يفارقُه الابتسامُ ولا يفتقرُ إلى الهدوءِ والصوتِ الخافتِ على أي حال.

تدري جيداً صدقَه في الأمورِ ظاهرهَا وباطنِها؛ كما أدركت إخلاصه

(١) سيرة ابن هشام: تحقيق طه عبدالرؤوف سعد ـ شقرون ص ٢٠٠، ٢٢١.

خلال هذه السنوات، كانت الابتسامةُ لا تفارقُ شفتيْه؛ إضافةً إلى صفاءٍ وطهرٍ داخلَ النفسِ؛ يحب لغيرِه ما يحبُ لنفسه؛ يعرفُ الطريقَ إلى الخيرِ وهو سهلٌ ميسورٌ لديه؛ لكن طريقَ الشرِ بعيدٌ جداً عنه؛ لا يعرفُه ولا يودُّ أن يسلكَ دروبَه، أو يخُطوَ في آفاقِه.

كم كانَ بين يديه من أموالٍ، سواء اكتسبَها أم كانتْ وديعةً لديْه؛ ورغم ذلك لم يفكر قط في لعب الميسرِ، أو مصاحَبَةِ رفقاءِ السوءِ، أو شرب الخمرِ.. لقد عصمه الله عز وجل عن كل ما هو مشين.

إن السيدة خديجة لتضع مالها كلَّه تحت تصرفِه، وتحت إشرافه.. والسيدةُ خديجةُ ساعتها.. هي مَنْ هي .. إذ تَروي كتبُ التاريخِ أنها وإن كانت من أواسطِ قريشٍ نسباً فإنهَا لأعظمهنَّ شرَفاً، وإن كانتْ أعظمهنَّ شرفاً فإنها لأكثرهُنَّ مالاً.

هذا عن نفسِها فمَنْ هي في عيونِ المحيطينِ:

جاء في بعض كتب التاريخ(١)، أن كلَّ فرد في قومِها كان حَريصاً على المكانةِ التي وصلَ إليهَا محمدٌ ﷺ لو كانَ يقدرِ عليها أي أنهُم جميعاً يتمنَّون.. وهم يعلمون أنهم غيرُ قادرينَ على تحقيق أُمنيتِهم فقد ارتبطت برجلٍ شرَّفها اللهُ بِه، لأنَّها على طيلة خمسةَ عشرَ عاماً لم تشتكِ منه؛ لقد

---

(١) سير أعلام النبلاء: ص ٨٣.

رأت رجُلاً جمعَ اللهُ له في الحياةِ الدنيا المتعتين.. المال والبنين، فلم يتغير له طبعٌ بل كان ـ بلا مبالغةٍ ـ كما علمَته وخَبَرتْه في المرةِ الأولى.

ثم قال حينَ ذهبَ عنه الخوفُ: «يا خديجةُ، ما لِي؟» لقد خشيتُ على نفسِي.

بشارة وتثبيت:

وتُعَلِّمَ السيدةُ خديجةُ الزوجاتِ إلى يومِ القيامَةِ كيفَ تكونُ الزوجةُ الصالحةُ، إذ إنها تقولُ لزوجهَا في موقفٍ تحيَّر هو نفسُه فيه. وبيقينٍ ثابتٍ، وعقلٍ رشيدٍ تقول له:

«كلاَّ، أبشِر.. فوالله لا يخزيكَ الله أبداً، إنكَ لتصلُ الرحمَ، وتصدقُ الحديثَ، وتحملُ الكلَّ، وتُقْرِي (تُكْرِم) الضيفَ، وتعينُ على نوائبِ الحقِّ (مصائبه)».

هكذا، عرفتْ خديجَة كيفَ تُسَرِّي عن زوجها، وترسِّخُ قاعدةً (احفظِ الله يحفظْك) التي عرفنَاها من رسولِ الله ﷺ، ولم تكتفِ خديجةُ العاقلَةُ الرشيدةُ بهذه الترويحاتِ المطرباتِ، الخاليةِ من الغشّ والخداعِ، النقيَّة من التمويه والقول بغيرِ علمٍ. لم تكتفِ خديجةُ بهذا التبشيرِ المصحوبِ بالدليلِ، بلْ إنها لما أصبحَ الصباحُ، وقبلَ أن تمدَّ شمسُ النهارِ أشعتَها في أرجاءِ مكةَ، أسرعَت خديجةُ بزوجهَا الذي ما زالت آثارُ الحادثِ باديةً على

بشرتهِ النوريَّة، كأنَّهُ حديثُ عهدٍ بإعياءٍ أو مرضٍ، ولا عجبَ.. فَلقاءُ الملائكةِ ليس كأيّ لقاءٍ، إنه يحتاجُ إلى قوةٍ خاصَّةٍ، لا تتوافرُ لأحدٍ، ولذلكَ بلغَ منه ﷺ الجهدَ والتعبَ مبلغاً عظيماً؛ من جراءِ هذه الضمةِ الملَكيَّةِ الرهيبةِ، أسرعت به خديجَة إلى ابن عمِّها، ورقةَ بنِ نوفلٍ، الذي تمرُّ ساعاتُه في عبادةٍ ومطالعةٍ للكتبِ السماويَّة، ذهبت إليه علَّها تجدُ عنده تفسيراً لما حدثَ لزوجِها، فلما دخلتْ عليْه رحَّبَ بها وبزوجِها محمدٍ ﷺ، وهو يعلمُ من هو محمدٌ في صدقِ حديثِه، ورجاحَة عقلِه...

أخذت خديجَةُ بأطرافِ الحديثِ وراحت تتلمَّسُ عند ابن عمِّها تفسيراً لما حلَّ بزوجها محمد ﷺ، فأخذَ ورقةُ بن نوفلٍ في تقليبِ الأمرِ على وجوهِه، وراحَ ببالِه إلى الوراءِ إلى موسَى بنِ عمرانَ، وعيسى بنِ مريمَ، وأخذَ يتملَّى في حالِ محمدٍ ﷺ وقصتِه الجديدةِ، ويقارن الأحوالَ بالأحوالِ، والسيرةَ بالسيرةِ، والقصَّة بالقصةِ، فإذا بلسانه يشقُّ هذا الهدوءَ، بكلمةِ الحقِّ والصوابِ، فقالَ بفرحٍ ولهفةٍ وسرورٍ تخالطُه حرارةٌ جيَّاشَة، تكادُ تنتزعُ الدموعَ من محاجرهَا، من شدةِ السعادةِ، إنه يقولُ:

«أبشرْ يا محمدُ فإنهُ ـ واللهِ ـ الناموسُ الذي أنزلَ على موسَى بنِ عمران، وليتَني فيها جذعاً (يعني أكون شاباً)، ليتني أكونُ حياً حين يخرجُك قومُك!!».

وهنا التفتَ محمدٌ ﷺ بوجهِه المشرقِ، بعدَ أن كانَ مطرقاً للسمعِ وقالَ: «أو مُخرِجيَّ هم؟!».

يتعجبُ محمدٌ ﷺ من هذا التناقُضِ، نعمْ فإن خبراً كهذا ـ أي النبوة ـ ينبغِي أن تقابلَه الجزيرةُ العربيةُ كلُّها بالفخرِ والاعتزازِ، لا أن تضيقَ به، وتتبرَّم له، وتزهدَ عنْه!! وهنا أخذَ ورقةُ يزيلُ العجبَ ببيانِ تلكَ السُّنَّةِ الربانيةِ في الناسِ معَ أنبياءِ اللهِ، فقال:

«نعمْ، لم يأتِ رجلٌ قط بما جئتَ به إلا عُودِيَ!!. وإن يدركْني يومُك أنصرْك نصراً مؤزَّراً».

هنا هدأتْ أنفاسُ خديجَةَ، واتسعَ صدرُها، وراحت تُعِدُّ لزوجِها زادهَ الذي يذهبُ به إلى الجبَل.. «جبل النور» .. إلى «غارِ حراءٍ» الذي تعبَّد فيه، فلعلَّ الحُلْمَ يصيرُ حقيقةً، وتصبحُ خديجةُ زوجاً لخاتمِ النبيينَ والمرسلينَ وهذا غايةُ المنَى، وتلكَ المكانةُ التي لا تدانيهَا مكانةٌ.

جهاد و مؤازرة:

لقد تحوَّلَ بيتُها بعد البعثَة النبويَّة إلى شعلةِ نشاطٍ، وخليةِ نحلٍ، ودارِ عملٍ، ينبعثُ منها النورُ، كما رأتْ في حُلْمِهَا القديمِ وعاشتِ السيدةُ خديجةُ سنيِّ الدعوةِ الأولى معَ الرسولِ ﷺ لا تدخرُ جُهداً ولا مَالاً، وقفت بجانبه تشد آزره، وتأسو جرح نفسه لأنها كانت تعلم وعورة الطريق

وصعوبة السير فيه منذ أن سمعت كلام ورقة بن نوفل، لقد لقي عليه السلام من عناد المشركين وأذاهم الكثير، وصبرت وصابرت وساعدته بكل ما تستطيع وبذلت نفسها ومالها في سبيل الدعوة إلى الله.

لقد طال الإيذاء بنات النبي ﷺ فقد طلقت رقية وأم كلثوم من زوجيهما الكافرين وقد ظن الكافرون أنهم بذلك يؤلمون النبي ﷺ ورغم ما أصاب خديجة ـ بصفتها أماً ـ من الألم إلا أنها صبرت حتى عوضهما الله خيراً.

أما محنة المقاطعة فكانت من أقسى ما تعرض له المسلمون في مكة قبل الهجرة، وكان للسيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ دور كبير في تخفيف المحنة، وفي مواساة النبي ﷺ والمسلمين في أثنائها.

ومرت سنوات المقاطعة الظالمة بعد أن هلك فيها من هلك من أطفال المسلمين ونسائهم وما أن انتهت أعوام المقاطعة حتى جاء.

عام الحزن:

تلك هي التسمية التي اشتهر بها هذا العام بين المسلمين حيث توفي فيه عمه أبو طالب أحد الدروع الحامية للرسول عليه السلام وقد حزن الرسول ﷺ على موته كافراً، وكم تمنى لعمه الهداية، وألح عليه في ذلك ولكن الله لم يقدرها له.

وبعد مضي أقل من ثلاثة أشهر، ولعشرٍ خَلون من رمضان.

توفيت خديجة ـ رضي الله عنها ـ وكانت الركن الشديد في حياة النبي ﷺ حزن عليها حزناً شديداً وبقَى ذكرُها على لسانِ نبيهِ ومصطفَاه ﷺ ولسانِ المؤمنينَ والمؤمناتِ، حيثُ تعدُّ مثلاً أعلَى يستحقُ التقديرَ والاحترامَ.

منزلتها عند رسول الله ﷺ:

عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: «ما غرتُ على امرأةٍ ـ يعني من امرأة ـ ما غرتُ على خديجةَ، مما كنتُ أسمعُ من ذكرِ رسولِ اللهِ ﷺ لها، وما تزوجَني إلا بعدَ موتِها بثلاثِ سنينَ، ولقد أمرَه ربُّه أن يبشرَها ببيتٍ في الجنَّة من قصبٍ(١)».

لقد كانَ النبيُّ ﷺ يصل نساءً كنَّ يأتينَه في بيتهِ أيامَ خديجةَ؛ رعايةً لصحبتها، ووفاءً لأهلِ محبَّتِها؛ وهذا دليلٌ واضحٌ على علوِّ مكانَتِها عندَه ﷺ واعتزازه بهَا؛ حيثُ كانت زوجاً عطوفاً، وأمًّا رؤوماً، وأختاً في دين اللهِ مُعينةً على أوامرِ اللهِ، تُلقي بنفسهَا ومالِها في سبيلِ الدعوةِ إلى اللهِ، ولقد دفعتْ بهذا الجهدَ الداخلي التأميني، نفسَ النبي ﷺ إلى الصبرِ والمصابرةِ على متاعبِ الدعوةِ ومشقتها، وقوَّتْ نفسَه وقلبَهُ، حتى استطاعَ أن يجابِه

(١) رواه البخاري ٧/١٠٢، ١٠٣، ومسلم (٢٤٣٥). وكلمة قصب تعني: عيدان الذهب والفضة.

الكفرَ المتغطرسَ، ويواجهَ الشركَ المداهنَ، هذا في مرحلةِ التكوينِ والنشوءِ وهي ـ بحقٍ ـ أصعبُ مرحلةٍ من مراحلِ الدعوةِ الإسلاميةِ على الإطلاقِ وأيُّ نقصٍ في العواملِ المساعدةِ كفيلٌ بكسرِها أو ـ على الأقل ـ تأخيرِها سنواتٍ؛ ولذلكَ لما قضتْ حكمةُ اللهِ تعالَى أن يتوفَّى هذا الركنُ الشديدُ، في حياةِ محمدٍ ﷺ كانت الصدمةُ على قلبِ النبيِّ ﷺ شديدةً، حتى سُمِّي العامُ الذي تُوفيتْ فيه خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ «عامَ الحزنِ» وليسَ أدلَّ من ذلك على عمقِ تأثيرها في شخصيةِ المصطفى ﷺ وتسليتهَا له، وتسريتهَا عنه، كلَّ ما كان يلقاهُ من صناديدِ الكفرِ، وشياطينِ الشركِ ولذلك لما كانت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ تغارُ منها، كان ﷺ يبينُ لها أن خديجةَ فوقَ مستوىَ الغيرةِ والمنافسةِ، فإن ما فعلَتْه وقدمَتْه لا يستطيعُه أحدٌ، إنه يقولُ منافحاً عنها ومدافعاً:

«والله لقدْ آمنتْ بي إذ كذبنيِ الناسُ، وآوتني إذ رفضنيِ الناسُ، ورزقتُ منها الولدَ وحرمتمُوه منِّي»(١).

(١) نسبه الحافظ في «الإصابة» ١٢/٢١٧، ٢١٨، إلى كتابه «الذرية الطاهرة» للدولابي وإسناده حسن. ورواه أحمد في المسند برقم: ٢٤٧٤٥، وبمعناه البخاري برقم ٣٨١٨.

خاتمة:

وبعدُ فهذه خديجةُ، وتلكَ مواقفُهَا المشرِّفةُ، وسيرتُها العطرة، وظلالها الوارفةُ، سردنَاهَا بأسلوبنَا المتواضعِ الذي نودُّ ألا يكونَ مخلاً ولا مملاً، وإن كانتْ خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ لا يملُّ سيرتها وذكرها أحدٌ، وحسبُنَا أن نعتقِدَ أنَّها أحبُّ نساءِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى قلبهِ، وأنها أم المؤمنينَ وسيدةُ نساءِ العالمينَ.

الفهـــرس

مولدها ونسبها.	٧
نشأتها.	٧
زواجها قبل الرسول.	٧
اشتغالها بالتجارة.	٨
ما اشتهرت به في مكة.	٨
اللقاء بين الأمين والطاهرة.	٩
الرؤيا السارة.	١٦
انشغال الرسول عن الزواج.	١٨
خديجة تطلب محمداً ﷺ.	١٩
خروج القافلة إلى الشام.	٢٠
زواج مبارك.	٢٣
الرسالة.	٢٥
بشارة وتثبيت.	٣٢
جهاد ومؤازرة.	٣٤

عام الحزن. ٣٥

منزلتها عند رسول الله. ٣٦

خاتمة. ٣٨

الفهرس. ٣٩